

المحاضرة التاسعة: الدولة الرستمية

➤ المكتسبات القبلية:

- يُفترض أن يكون الطالب قبل دراسة موضوع الدولة الرستمية قادراً على:
- استيعاب الظروف العامة لقيام الحركات والمذاهب الإسلامية بعد الخلافة الراشدة، خصوصاً الخوارج وفروعهم.
- معرفة الخلفية السياسية لعصر الولاة في المغرب الإسلامي، وفهم تعاقب القوى السياسية فيه (الأمويون، العباسيون، الخوارج).
- الإلمام بالجغرافيا التاريخية للمغرب الأوسط خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة، ومعرفة مراكز الاستقرار الكبرى مثل تيهرت.
- الفهم الأولي لأسباب ظهور الكيانات السياسية المستقلة في المغرب الإسلامي نتيجة البعد عن المركز (دمشق ثم بغداد).
- معرفة عامة بتيارات الخوارج وأبرز أفكار الإباضية التي ستشكل الأساس الفكري للدولة الرستمية.
- الإلمام بسياق سقوط الدولة الأموية وصعود العباسيين وتأثير ذلك في أطراف الدولة الإسلامية ومنها المغرب الأوسط.

➤ الأهداف العامة:

بعد انتهاء دراسة هذه المحاضرة، يُتوقع من الطالب أن يكون قادراً على:

1. تحليل الظروف التي أدت إلى نشأة الدولة الرستمية في المغرب الأوسط منتصف القرن الثاني للهجرة.
2. تفسير الدور السياسي والديني للإباضية في تأسيس الدولة وبناء نموذج حكم مختلف عن المركز العباسي.
3. التعرف إلى شخصية عبد الرحمن بن رستم ودوره في بناء مؤسسات الدولة في تيهرت.
4. شرح مقومات القوة الاقتصادية للدولة وخاصة موقع تيهرت التجاري ودورها في الربط بين المغرب والسودان والأندلس.
5. تحليل أسباب استقرار الدولة لمدة تقارب قرناً ونصف رغم التحديات العسكرية والسياسية.
6. تقييم العلاقات الخارجية للرستميين مع الأغلبة، الأدارسة، والعباسيين.
7. استنتاج أسباب سقوط الدولة الرستمية سنة 296هـ/909م على يد الفاطميين.
8. إدراك أهمية الدولة الرستمية في تشكيل هوية المغرب الأوسط سياسياً ومذهبياً وثقافياً.

د. بن عتو رضا تاريخ الجزائر العام

1. ظهور الفكر الخارجي في المغرب:

كان ظهور الخوارج في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه كفرقة سياسية تدعوا إلى رفض التحكيم وبقاء الخلافة في بيت واحد وسلطة واحدة، ولكن ما فتئت أن تحول الخوارج إلى مذهب عقدي له أفكاره الدينية الخاصة، والحقيقة أن السلطة الأموية بدورها كانت قد أضعفت الخوارج ولاحتقتهم في كل مكان، وقتلت من زعمائهم عددا كبيرا مما دفعهم إلى التفكير جديا في مصير حركتهم، وبالتالي إيجاد طريق جديدة لاستمرارها، وهنا فكروا في التوجه نحو الأماكن القصوى بعيدا عن مركز الخلافة، فمنهم من توغل باتجاه الشرق، ومنهم من قصد بلاد المغرب. والواقع أن الخوارج عندما وصلوا إلى المغرب استطاعوا أن ينشروا أفكارهم ويتوغلوا بين القبائل البربرية ويناوؤوا عمال بني أمية بسكان المغرب أنفسهم، مما طبع حركتهم بالطابع المحلي وبالتالي اقتضت الضرورة تكثيف الجند العربي القادم من المشرق لمواجهة البربر الخوارج؛ وفي غمرة الانتصارات التي حققها الخوارج حدث أمر خطير في المشرق بسقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية سنة 132هـ كقوة فتية جديدة، ومع انشغالهم مع تثبيت دولتهم في بغداد أهملوا نوعا ما بلاد المغرب.

أما بلاد المغرب فقد وجد الخوارج فيه مكان للنشاط وزرع أفكارهم وسط القبائل وهذا بسبب الظلم والجور الذي لقيه سكانه من ولاية بني أمية، وقد ظل سكان البربر صابرين حتى أتاهم جموع الخوارج الهريين من المشرق فتنبوا أفكارهم القائمة على العدل والمساواة؛ والجدير بالذكر أن من بين فرق الخوارج العديدة، لم تنتقل إلى المغرب إلا فرقتان هما الإباضية والصفورية، وتروي المصادر الإباضية أن أول داع لمذهبهما ببلاد المغرب هو سلمة بن سعيد.

2. ثورة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح الإباضي 140هـ:

كان أبو الخطاب قد بويع بالإمامة سنة 140هـ، وفي نفس الوقت توجه بأصحابه من الإباضية إلى مدينة طرابلس، فدخلها وطردها منها عاملها الذي رجع إلى المشرق، وقد تمكن أبو الخطاب من السيطرة على القيروان والوقوف في وجه الصفريين في المنطقة.

وما كان من الخلافة العباسية إلا إرسال جيشا للقضاء على ثورة أبي الخطاب بقيادة محمد بن الأشعث الخزاعي والذي أرسله الخليفة المنصور، وقد تمكن محمد بن الأشعث من القضاء على الجيش الإباضي وتشتيت شملهم حيث فر هؤلاء وتحصنوا في الجبال.

وما كان من عبد الرحمان بن رستم والذي كان صديقا لأبي الخطاب إلا الفرار من القيروان خوفا على نفسه من جيش الخلافة، وكان الطريق نحو المغرب الأوسط، وكان هذا الاتجاه هو البدايات الأولى لتأسيس الدولة الرستمية.

د. بن عتو رضا تاريخ الجزائر العام

3. المذهب الإباضي:

وقع الخلاف بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، انتهى الخلاف إلى معركة صفين والتي ترتب عنها ما يعرف في التاريخ بحادثة التحكيم، وهذا الذي أحدث الشقاق في جيش علي وخروج فئة رافضة لهذه الفكرة واعتزلت عليا رافعين شعار " لا حكم إلا حكم الله "، وقد وقع الاقتتال فيهم في معركة النهروان سنة 38هـ، قضى عليهم علي بن أبي طالب وكانت حركتهم متماسكة إلا أن وقع فيهم الخلاف حول مسألة الخروج لمحاربة السلطة الأموية، حيث أن فريقا منهم رأى الخروج واجبا بينما الفريق الآخر التزم القعود واعتبر الخروج لا يحل لأن المخالفين لهم أبرياء من الشرك وبالتالي لا تجوز مقاتلتهم وكان عبد الله بن إباح هو صاحب هذا الرأي وبالتالي وقع الانشقاق بين الخوارج فكان الجانب المتطرف يمثل الأزارقة والنجدية وفي الجانب المعتدل نجد الإباضية والصفرية.

4. بناء تيهرت كعاصمة للرستمين:

يرجح أن عبد الرحمان بن رستم قدم إلى موضع تيهرت ما بين سنوات 155هـ-160هـ، وتفسير ذلك أن الإباضية في المغرب الأدنى لما رأوا ملاحقة جيوش الخلافة العباسية لهم رأى عبد الرحمان بن رستم بضرورة التوجه نحو المغرب الأوسط ولما كثرت الإباضيين في المغرب الأوسط رأوا بضرورة بناء مدينة يتحصنون بها وسيبدأ العمل على بناء هذه المدينة مع نهاية سنة 155هـ وبداية سنة 156هـ، تم اختيار موضع تيهرت لأسباب متعددة منها جودة الهواء وكثرة المياه وخصب الأراضي، وهو موضع قابل للعمارة مأمون العدو.

وتورد المصادر الإباضية روايةً حول بداية تأسيس المدينة في ذلك الموضع، مفادها أنّ جماعة من السكان اتفقوا مع الداخلين الجدد على منحهم قدرًا من الخراج يُستخرج من غلة الأرض، مقابل تعاونهم في تهيئة المكان الذي كان آنذاك منطقة غياض كثيفة الأشجار، تعيش فيها أنواع متعددة من السباع والوحوش، مما استدعى - بحكم الضرورة - إزالة تلك الأخطار وإخلاء المنطقة.

وتضيف الرواية نفسها عنصرًا ذا طابع أسطوري، إذ تذكر أنّ مناديا نادى في السباع بأن تغادر الغابة لأنهم ينوون عمارتها، فشوهدت الحيوانات تخرج من الأحراش وهي تحمل صغارها. وبعد ثلاثة أيام فقط أضرمت النار في الغابة حتى صارت أرضًا مستوية كأنها لم تكن عامرة بالأشجار من قبل.

وقد شرع المؤسسون بعد ذلك في التفكير في اختيار موضع البناء، فاستعانوا بالقرعة لتحديد المكان الأنسب، ثم بدأوا في تخطيط المدينة ورسم معالمها من دور وقصور ومسكن.

وهنالك أسباب أخرى يمكن تلخيصها فيما يلي:

- تقليد عبد الرحمان للمدرايين الخوارج الصفرية الذين بنوا عاصمتهم في سجلماسة في جوف الصحراء واستطاعوا أن يكونوا بمنأى من هجومات القوات العباسية.

د. بن عتو رضا تاريخ الجزائر العام

- مركز تيهرت التجاري إذ يربط تجارة الشمال بتجارة الجنوب.
 - اختيار عبد الرحمان تيهرت لكي يستطيع أن يتحكم في القبائل الصحراوية البدوية بحيث لا يمكنها الهروب منه.
- وكان بناء مدينة تيهرت قبل تأسيس الدولة الرستمية إذ تطورت المدينة في العمران وقصدها الإباضية من قاطبة المغرب الإسلامي قبل سنة 160هـ.

5. حكام الدولة الرستمية:

عبد الرحمان بن رستم:

تحالف عبد الرحمن بن رستم مع دولة بني واسول أو المدراية الخارجية في سجلماسة (جنوب المغرب) لتقوية دولته، ونتج عن هذا التحالف مصاهرة تمت بزواج أروى بنت عبد الرحمن بن رستم من المنتصر بن اليسع بن مدرار ملك جنوب المغرب، وقد أنجب المنتصر من أروى ولدًا ذكرًا سمّاه ميمونًا حكم بعده.

عبد والهاب بن عبد الرحمان بن رستم:

وبعد وفاة عبد الرحمن بن رستم سنة 168هـ/ 784م ترك الأمر شورى في سبعة أشخاص من بينهم ابنه عبد الوهاب الذي مالت الأغلبية إلى مبايعته وسلّمت عليه بالخلافة، في الوقت الذي بقي فيه المعارضون لخلافته على موقفهم فسمّوا بالثُّكَّار أو النُّكْرِيَّة.

م تتابع في حكم الدولة الرستمية خمسة من الأمراء، هم: أبوبكر بن أفلح، وأبو اليقظان، فأبو حاتم، فيعقوب ابن أفلح، فاليقظان ابن أبي اليقظان آخر أمراءهم.

6. الأوضاع الاقتصادية:

الزراعة :

تمتاز جغرافية المغرب الأوسط بطبيعة فلاحية لذلك عرفت الدولة الرستمية زراعة متطورة ومزدهرة شملت مختلف أقاليمها التي كانت تكثر فيها البساتين وزراعة الحبوب، والعصفر والكتان والسمسم والنخيل، ومختلف الفواكه، والتين والزيتون، فكانت تدر عليهم أرباحا طائلة .

وقد كانت تكثر فيها الأنهار ، وأقام الرستميون خزانات وأحواض للماء كبيرة وكانت محكمة التصميم والهندسة، ليحافظوا على الماء أيام الجفاف، بل إنهم أوصلوا الماء إلى البيوت عن طريق الأنابيب وشق القنوات.

د. بن عتو رضا تاريخ الجزائر العام

الرعي وتربية الماشية

كانت تربية الماشية في الدولة الرستمية تقوم جنبا إلى جنب مع الزراعة، ولكثرة المراعي الخصبة في الدولة الرستمية كانوا يربون الغنم والبقر والجمال والخيول والبغال والحمير ، وكانت تجارحتها رائجة، وتصدر إلى الدول المجاورة، وكانوا يستغلونها في إنتاج الصوف..

لتجارة : اهتم الرستميون بالتجارة الداخلية والخارجية، فأنشئوا الأسواق في مختلف المدن التي كانت رائجة بشتى أنواع البضائع والمؤن التي تأتي من داخل الدولة الرستمية نفسها أو من الدول الأخرى عن طريق العلاقات التجارية مع الكثير من الدول كالأندلس ومصر وبلاد السودان وغيرها من الدول في المشرق والمغرب...

فكانت القوافل التجارية تخرج من الدولة الرستمية محملة بشتى أنواع البضائع والمؤن إلى تلك الدولة، وتعود كذلك محملة بالبضائع التي تنتج في تلك البلاد، وكانت تجارة الذهب وبيع الرقيق رائجة في ذلك الوقت، وللدولة الرستمية نشاط كبير فيها... ووصل نشاط التجار في الدولة الرستمية إلى حد أنه كان يوجد بها التخصص في الأسواق، فكان بها سوق النحاس، وسوق الأسلحة، وسوق الصاغة، وسوق الأقمشة وغيرها من الأسواق.

7. الحياة الفكرية في الدولة الرستمية:

كان للرستميين دور بارز في الحياة الفكرية بالمغرب الأوسط خاصة ولا نبالغ إذ قلنا بالمغرب الإسلامي، فقد حملت هذه الدولة مشعلا عظيما للحضارة والعلم في الشمال الإفريقي . وقد اهتمت الدولة الرستمية بإنشاء المكتبات العلمية الزاخرة بمختلف فنون العلم والآثار ومن مكباتها المشهورة مكتبة " المعصومة " التي كانت تحوي آلافا من المجلدات والكتب، وأوصلها بعض الباحثين إلى ثلاثمائة ألف مجلد، ... فكانت تحوي بين رفوفها كتباً في علوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وتوحيد، وكتباً في الطب والرياضيات والهندسة والفلك والتاريخ واللغة وغيرها من العلوم المختلفة، ... ولم تكن كتبها مقتصرة على مذهب بعينه بل كانت تجمع مؤلفات لمختلف المذاهب الإسلامية، ومن المكتبات المشهور الأخرى " خزانة نفوسة " الجامعة لآلاف الكتب، وكذلك لم تخل منازل العلماء في الدولة الرستمية من وجود المكتبات الخاصة .

د. بن عتو رضا
تاريخ الجزائر العام

الصورة رقم 01:

خريطة لأقصى توسع للدولة الرستمية:

